

د/ زبيدة الطيب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة.

قسم العقيدة ومقارنة الأديان.

المحور الرابع:

عنوان المداخلة: الإنسان كغاية في علم الكلام الجديد.

الإشكالية:

يحظى الإنسان بمنزلة عظيمة في نصوص القرآن الكريم والسنة؛ فهو الخليفة والمكلف بالعمارة والعبادة، وهو الذي خصه الله تعالى بالعقل وكرمه وحمله في البر والبحر. في الوقت نفسه نلاحظ أن مبحث الإنسان تم حجبه في أغلب العلوم الإسلامية، ولعل أبرزها علم الكلام؛ الذي لم يحظ فيه الإنسان بتلك المكانة التي تظهر في نصوص القرآن والسنة. وربما كان لهذا الحجب أسبابه ومبرراته؛ إذ إن علم الكلام كان قد نشأ وتطور استجابة لأسباب وعوامل لم يكن موضوع الإنسان حاضرا فيها.

غير أن الاحتكاك بالحضارة الغربية بدءا من حملة نابليون على مصر، مروراً بمرحلة النهضة إلى اليوم كشف للمسلمين محورية الإنسان؛ الذي رفعته إلى مرتبة الإله على أنقاض "موت الإله" في الفكر الغربي. وفي الوقت نفسه كشف لهم مأزق الفكر الإسلامي القديم، وعلم الكلام على وجه الخصوص، الذي حجب الإنسان عن اهتماماته، وبالتالي تم تغييب منزلة الإنسان في القرآن الكريم والسنة ردحا من الزمن في جل العلوم الإسلامية.

وفي ضوء معطى تأليه الإنسان في الفكر الغربي، وتأخيره أو حجب الاهتمام به في الفكر الإسلامي. هل بات علم الكلام اليوم مطالب بالقطيعة مع الوظيفة التي عزلت الإنسان في علم الكلام القديم، والقطيعة مع الفكر الغربي الذي؛ يتنكر لحاجته الوجودية إلى الدين في الوقت ذاته؟ وهل يمكن أن يشكل موضوع الإنسان والاهتمام به غاية أو وظيفة تجيب عن تساؤلاته وتلبي حاجته إلى وضع أفضل داخل المنظومة الدينية؟

والإجابة على تلك الإشكالية سيكون ضمن العناصر التالية:

1/ موقع الإنسان في علم الكلام القديم:

1/ التعريف بعلم الكلام: علم الكلام هو أحد العلوم النصية التي تستند في بنائها وتخريجها إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وهو من بين أكثر العلوم الإسلامية أهمية نظرا للمكانة التي يحتلها بوصفه العلم الذي يستبطن التصور الإسلامي ويحدد نظرة المسلمين إلى الله والكون والحياة والإنسان. وقد أفصحت الكثير من التعريفات التي أعطيت لهذا العلم عن موضوعه ومسائله ولغته ومنهجه وغايته؛ هذه الأخيرة التي تبدو في أول تعريف أعطي لعلم الكلام وهو تعريف الإمام أبو حنيفة (ت 150هـ) في القرن الثاني الذي يقول فيه: " إعلم أن الفقه في أصول الدين أفضل من الفقه في فروع الأحكام والفقه هو معرفة النفس ما يجوز لها من الاعتقادية والعمليات وما يجب عليها منهما وما يتعلق منها بالاعتقادات هو الفقه الأكبر وما يتعلق بالعمليات فهو الفقه."¹ وتسمية " الفقه الأكبر" هي ما يقابل "الفقه الأصغر" الذي يعنى ببحث فروع العبادات والمعاملات. وفيه (أي في التعريف) تظهر غاية هذا العلم وهي بيان أصول الدين ومسائله تماما مثلما هي غاية "الفقه الأصغر" بيان وإيضاح فروعه.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري برز "الفقه الأكبر" بوجه جديد وتسمية جديدة بدخول الآلة العقلية التأويلية على يد المعتزلة؛ فصار يسمى "علم الكلام". وهذه التسمية تعود، على أرجح الأقوال، إلى حادثة القول بـ"خلق القرآن" التي بحث فيها المعتزلة كلام الله تعالى وخرجوا بكون القرآن كلام الله تعالى مخلوق مثلما يصرح به القاضي عبد الجبار المعتزلي: "... وأما مذهبنا في ذلك فهو أن القرآن كلام تعالى ووحيه وهو مخلوق محدث."²

وقد شكل البحث في مسألة كلام الله تعالى أحد أكبر التحديات التي تعرضت لها العقيدة الإسلامية في ذلك الوقت من قبل المسيحيين. وهو الأمر الذي جعل المعتزلة يمتشقون سيف العقل من أجل الرد على شبهة الطعن في التوحيد الإسلامي بالقول بقدوم كلام الله تعالى المتمثل في القرآن الكريم

¹ / البياضي كمال الدين أحمد، إشارات المرام من عبارات الإمام، حقق نصوصه وعلق عليه وضبطه: يوسف عبد الرزاق، ط1، زمزم بيليشر، كراتشي، باكستان، 2004، ص29.

² / القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، ط2، القاهرة، مكتبة وهبة، 1988، ص 528

حتى يكون القدم صفة خاصة بالله تعالى ولا يشاركه فيها أحد؛ ذلك أن الإقرار بصفة الكلام كان يشعرهم، كما يقول المستشرق جولد تسيهر "... بتصدع في وحدة الله الخالق إذ يروا في صفة الكلام شيئا أقل من حذف أو إلغاء وحدة الذات الإلهية."³ وهو ما رأوا أنه حماية لعقيدة التوحيد التي هي أخص ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء.⁴ وهذا ما يُظهر أن غاية علم الكلام هي الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد الشبهات التي أثارها المسيحيون، على وجه الخصوص، بغرض التشويش على عقيدة المسلمين.

إن ظهور علم الكلام على يد المعتزلة، بتلك الصورة التي حددت غايته وهي الدفاع عن عقيدة التوحيد، هي ما دعا الفارابي (ت339هـ) في القرن الرابع أن يعطيه تعريفا يتلاءم وتلك الغاية؛ حيث يقول: "علم الكلام صناعة يقتدر بها الإنسان على نصره الآراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقويل."⁵ والمراد بالإنسان هو المسلم الذي ينتصر لما جاء في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم (واضع الملة) من خلال كشف زيف العقائد المناوئة ومن ثمة إبطالها بالاستعانة بالجدل العقلي.

وفي القرن السادس نعثر على تعريف أبي حامد الغزالي؛ الذي يظهر أن غاية علم الكلام توسعت لتشمل الدفاع عن العقيدة ضد المبتدعة داخل الملة إلى جانب أصحاب الأقويل الباطلة من خارجها؛ إذ يقول عن غاية علم الكلام: "... إنما مطلوبه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة."⁶ وهو نفس التعريف الذي نجده عند ابن خلدون الذي يقول: "هو علم يتضمن الحجج عن العقائد

³ / جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، دط، بيروت، دار الرائد العربي، 1964، ص 101

⁴ / يرى المفكر المغربي محمد عابد الجابري أن حادثة خلق القرآن لم يكن الأمر فيها متعلقا بالرد على المسيحيين وإنما كان موضوعا أثير من أجل القضاء على أصوات معارضة للمأمون واستعمل فيها المعتزلة. فالموضوع سياسي تم استدعاء الديني من أجل أداء دوره في التجييش. (أنظر: محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ط3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، أبريل 2008).

⁵ / أبو نصر محمد الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق: عثمان محمد علي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1931، ص 71.

⁶ / الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، وضع حواشيه وخرج أحاديثه وقدم له: أحمد شمس الدين، ط1، بيروت، دار الكتب

العلمية، 1988، ص32.

الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.⁷ وإن كان البعض يعتبر ذلك انحرافاً عن الغاية الأولى التي بدأ بها علم الكلام أول ظهوره؛ وهي الدفاع عن العقيدة الإسلامية. يقول أحد الباحثين: "... لقد انتقلنا بهذا المفهوم من حيز الآخر الأقصى الذي يخالفنا المعتقد إلى الآخر الأدنى الذي يشاركنا الملة ويخالفنا المذهب والرأي."⁸

إن تلك التعريفات تكشف عن أن غاية علم الكلام في أول ظهوره كانت هي الدفاع عن العقيدة الإسلامية سواء ضد المناوئين لعقيدة أهل السنة في الداخل؛ أي المخالفون من المعتزلة والشيعة والخوارج وغيرهم... أو المناوئين في الخارج من الملل غير الإسلامية.

والمراد بالعقيدة الإسلامية كل ما يتعلق بالإيمان بوجود الله تعالى وتوحيده وتنزيهه عن التشبيه والتجسيم والشرك وأدلة إثباته وطرق رده والسعي إلى عبادته وإرضائه تعالى؛ وهي الغاية التي ظلت فرق المتكلمين ردحا من الزمن تتنافس في شرحها وبيانها وإثباتها وتجادل بشأنها. أي الله عز وجل هو الغاية التي من أجلها نشأ علم الكلام وتطور، وهي الغاية نفسها التي ظلت ترافقه منذ فترة قوته إلى حين ضعفه وتراجعته. ولم يبد الإنسان كغاية لهذا العلم أو موضوع اهتمام ودراسة المتكلمين والفرق التي كتبت وألفت المودنات والمؤلفات الكبرى في البحث والاستدلال والبرهنة على وجود الله تعالى وتوحيده وصفاته وأفعاله والدفاع عن كل ذلك؛ مع أن القارئ للقرآن الكريم يلحظ أن الإنسان يشكل مقصداً وغاية تم تغييبها في علم الكلام. وهو ما سنراه في العنصر الثاني.

2/ الإنسان كغاية في القرآن الكريم:

يظهر الإنسان في القرآن الكريم هو غاية خلق الكون وغاية التشريع؛ لأجله خلق الله تعالى الكون ولأجله سنت التشريعات والقوانين، ومضت الرسل في الدعوة؛ وهو ما توضحه النصوص والآيات.

الإنسان هو غاية الخلق:

14/ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دط، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 580

8/ علي بن مبارك، دور تجديد علم الكلام في التقريب بين المذاهب الإسلامية من خلال مجلتي: "رسالة الإسلام" و"رسالة التقريب"

فلأجله خلق وسخر الله تعالى الكون؛ قال تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ* يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالْوَيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ* وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ." النحل/ 10 - 14. وقال في شأن الحيوانات التي سخرت للإنسان: "وَالْإِنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ* وَتَحْمِلُ لَكُمْ وَالْإِنْعَامَ إِلَىٰ بَيْدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْبِغْيَةِ إِلَّا أَسْبَقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ* وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ." النحل/ 5 - 8 وفي شأن الجمادات قال: "وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ." النحل/ 65. وقال: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ." الجاثية/ 13. وقال: "وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ (32) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ." إبراهيم: 32/ 34

وقد خلقه ليكون مساحة للإنسان للتفكير ويكون فضاء لإعمال العقل والاستمتاع بلذة العلم ، والوصول إلى حقيقة الوجود الإلهي والإيمان به. ومن ثمة إدراك حقيقة وجوده من خلال التعرف على حكمة الخلق؛ قال تعالى: " خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ." العنكبوت/ 44 . وقال: "أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كُنْتَا سِتْفًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ 30 وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيً أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ 31 وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ 32 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ." الأنبياء: 30/ 33 تلك الآيات وغيرها كثير تدل على أن الله خلق الكون لأجل الإنسان لينتفع به في حله وترحاله ويتفكر فيه ويعمل عقله ويستمتع بنعمة العلم.

الإنسان هو غاية التشريع:

لم يرد في القرآن أو السنة أو حتى باقي الكتب السماوية ما يدل على أن الرسل قد أرسلوا إلى غير الإنسان، أو أن مختلف التشريعات قد خص بها غير الإنسان.⁹ فالرسل أرسلوا إلى الإنسان ليضعه الله

⁹ مع أن القارئ للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يلحظ أن هناك تشريعات موجهة للحفاظ على الحيوانات والجمادات والنباتات، ولكنها المقصود من المحافظة عليها هو الإنسان وليس مقصودها أن تحفظ لذاتها ولكن لأنها مسخرة للإنسان. وهذا

تعالى أمام مسؤولياته ويتحمل تبعات أعماله انطلاقاً من حرية الإرادة التي وهبها إياه؛ فقال تعالى: " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل." النساء/ 165. فلقد سبق وأن أعلن (أي الإنسان) أن " لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى." طه/ 134.

والرسل أرسلوا إلى الإنسان لتوجيهه ومساعدته من منطلق المحدودية والقصور التي يتلبس بها العقل؛ فالإنسان مهما أوتي من قدرة عقلية وميزة في التفكير والفهم خلافاً لبقية المخلوقات، فإنه يبقى عاجزاً عن إدراك الكثير من الأسرار خاصة الغيبية منها. قال تعالى: " وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً." وفي سبيل ذلك عانوا وتحملوا المصاعب وصبروا، ولم يحدث في تاريخ الأنبياء ودعوات الرسل أن رحب الإنسان بدعوة الرسول، بل يظل الرسول يكابد ويجاهد ويعرف الإنسان بخالفه وبحقيقته وبمصيره.

وكما أن الرسل لأجل الإنسان ابتعثوا؛ فإنه لأجله جاءوا بالتشريعات والتوجيهات التي تنظم حياته وعلاقته بالله تعالى وعلاقته بالإنسان وعلاقته بالطبيعة. فقد وسعت تلك التشريعات في الإسلام الإنسان رجلاً وامرأة وطفلاً وشيخاً ومراهقاً وكهلاً وفقيراً وغنياً وفرداً وأسرةً ومجتمعاً وجنينا، بل وقبل أن يكون وبعد أن يموت، وقد شملت التشريع الإسلامي الإنسان كفرد في سلوكه الخاص العام، وهذا يشمل ما يسمى "الحلال والحرام" أو الحظر والإباحة. وشمله فيما يتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق ونفقات، ورضاع، وميراث، وولاية على النفس والمال ونحوها. وشمله في علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض، من البيوع والإيجارات، والقروض، والمدائبات، والرهن، والحوالة، والكفالة، والضمان وغيرها. وشمله فيما يتصل بالجرائم وعقوبتها المقدره شرعاً كالحدود والقصاص، والمتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير. وشمله فيما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام، وتنظيم الصلة بين الطرفين. وشمله فيما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب بين المسلمين وغيرهم، مما عنيت به كتب السير أو الجهاد في فقهاء الإسلام.¹⁰

كما شملت التشريعات الإسلامية الإنسان في الجوانب الروحية والتعبدية والأخلاقية كما الحياتية؛ تشريعات وأحكام مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية والأخلاقية.

الإنسان هو غاية اليوم الآخر:

هو الفرق بين دعاوى الحفاظ على الحيوانات مثلاً في الفكر الغربي الذي يسارع ويقدم الدنيا ولا يقعد لها من أجل الإضرار بالحيوان في الوقت الذي لا يقتل الإنسان.

¹⁰ / أنظر في الموضوع: يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1983، ص112.

ولأجل الإنسان خلق الله تعالى الجنة والنار، ومن أجل إثابة المطيع ومعاقبة العاصي جهزت الجنة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعدت النار بما يستحقه العاصي من العقاب. ولتلك الغاية تنصب الموازين ويقف الديان سبحانه لكي ينفذ وعده بالجنة ووعيده بالنار؛ فلم يرد في أي نص أو شريعة سماوية أن الله تعالى قد وعد مخلوقاً آخر غير الإنسان بالجنة أو توعدده بالنار. جاء في حديث للنبي صلى الله عليه وسلم: " [إن الله تعالى يقول لأهل الجنة - يخاطبهم، هم يرون ربهم يوم القيامة - هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يا ربي وأي شيئاً أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً".]

لقد تبين لنا من خلال ما سبق أن الإنسان في القرآن الكريم هو المقصود من خلق الكون وهو المقصود من إرسال الرسل وإنزال التشريعات والأحكام، وهو المقصود من خلق الجنة والنار. وهو ما يجعلنا نمتلك مشروعية التساؤل حول أسباب غياب أو تغييب الإنسان في علم الكلام في صورته القديمة. كما تبين أيضاً أن إغفال منزلة الإنسان في العقيدة الإسلامية في علم الكلام القديم، وتجاوز حضوره المكثف في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

4/ أسباب غياب الإنسان كغاية في علم الكلام القديم:

لقد استبدت غاية الدفاع عن العقيدة الإسلامية ورد الشبهات والأباطيل عنها بفكر المتكلمين؛ ولم يظهر أن الإنسان يحظى بأي اعتبار في مقولاتهم ودراساتهم. وربما كان لذلك مبررات موضوعية تتعلق خاصة بطبيعة التحديات التي طغت على الساحة، والتي بدت فيها صورة الله عز وجل في العقيدة الإسلامية كهدف للمناوئين والمخالفين وأعداء العقيدة الإسلامية عموماً؛ فالناظر في أسباب نشأة علم الكلام التي سبق عرضها يلحظ أنه كان علماً نشأ وتطور في ضوء مكونات فكرية وثقافية استطاع أن يستوعبها في إطارها الزمني والمكاني ولحظتها التاريخية. وهي مكونات لم يكن موضوع الإنسان جزءاً منها... "علم الكلام القديم يعنى ببحث العقائد الإسلامية لأنَّ شبهات الخصوم كانت تتركز على العقائد فقط بينما يجري التأكيد هذا اليوم على الأبعاد الأخلاقية والتاريخية والاجتماعية في الدين... حيث تعتبر هذه المسائل من اختصاص علم الكلام الجديد."¹¹ ولذلك فإن مطالبة علم الكلام بالاهتمام بموضوعات لم تشكل تحدياً ثقافياً أو فكرياً أو عقدياً هو شطط فكري وتجاوز للأسباب والعوامل التي

¹¹ / إبراهيم بدوي، علم الكلام الجديد : نشأته وتطوره، دار المحجة البيضاء، للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، ص 67-68.

أظهرت أن هذا العلم نشأ في كنفها وبسببها. وعلى العكس من ذلك سيكون الانكفاء على تلك الموضوعات في زمن لم تعد فيه تحدياً هو نوع من الجمود وقتل لهذا العلم وإهدار لجهود المتكلمين القدامى ولاستمرارية علم الكلام.

من جهة ثانية كشف الفكر المابعد-حدائي عن الوضع الكارثي للإنسان، وخطر الحداثة التي أدخلت الإنسان في حربين عالميتين متتاليتين وتسببت في قطيعة بين الإنسان والله بعد أن نادى بموت الإله. الأمر الذي جعل الفكر الغربي غير قادر على تقديم نموذج أو تجربة بخصوص الإنسان يمكن إعادتها أو الاستفادة منها في السياق الإسلامي. ما جعل الفكر الإسلامي المعاصر يحاول أن يبحث عن موضع للإنسان في علم الكلام الجديد.

وهنا نجد علم الكلام يجتهد في إرساء قواعد علم الكلام جديد يكون الإنسان غايته، وتكون سعادة الإنسان وأمن الإنسان في الدنيا والآخرة هي مبتغاه ومنتهاه. وفي هذا السياق نعثر على العديد من الموضوعات التي يعمل الفكر الإسلامي على تطويرها وإنضاجها من أجل إدخالها ضمن الموضوعات الكلامية التي تتغيا الإنسان بالرغم من أنها لا تبدو من الموضوعات الكلامية بمنظور علم الكلام القديم، وهي موضوعات من صلب اهتمامات الإنسان المعاصر.

4/ الإنسان في علم الكلام الجديد... استفاقة محمودة:

يجتهد العديد من المفكرين والباحثين من أجل إرساء دعائم علم كلام لا يبتعد عن الإنسان واهتماماته وآماله وطموحاته وأوجاعه بغض النظر عن الخلفية الدينية أو العرقية أو اللغوية أو غير ذلك من التباينات من خلال إدماج جملة من المباحث تصب في مجملها في خدمة الإنسان والارتقاء بوضعه الديني والطيني معاً. انطلاقاً من طبيعة التكوين ومن ثمة ترتيب الحاجة على طبيعة التكوين؛ فالإنسان طين وروح، جسد وروح وعقل ولكل مكون من تلك المكونات حاجاته التي لا ينبغي أن تطغى واحدة منها على الأخرى ومن ذلك:

أ/ موضوعات خادمة للحاجة الوجودية والروحية للدين:

-الحاجات الروحية والحفاظ على أشكال التدين التي لا تصادم قطعيات العقيدة والشريعة ولا تعرضها، وتمثل تجربة ذاتية للتعلق بالله تعالى؛ فالمقولات الكلامية تتجاهل الحاجات الروحية للإنسان ورغبته في التعلق بالمتكلم؛ لأن المتكلم "... لا يهتم بالروح والقلب ولا ينفك عن إغراق عقل المسلم بجداول ومحاججات ذهنية تجريدية."¹² وهذا "... المنطق العقلي الذي اعتمده المتكلمون أهمل الكشف عن الجذور النفسية للاعتقاد، وأخفق في التعرف على: أن الإيمان حالة تعاش لا فكرة تناقش وأن الإيمان ضرب من التوق أو الانجذاب أو العشق [...] وأن التشبث بأدلة المتكلمين لا يوقد القلب ولا يكشف عما تختزنه العواطف ولا يتوغل في أشواق الروح."¹³ وهو بهذا الصنيع أهدر روحانية الإيمان، وأعطى الفرصة لظهور التصوف الذي يراه الرفاعي "... رد فعل على ما طغى في علم الكلام من نسيانه للذات ولمقام الإنسان في العالم وتغييب أبرز حوافر سلوكه العميقة وتجاهل ما هو الأهم في أعماقه."¹⁴

كما أغفلت المقولات الكلامية موضوعات الوصل بين الإيمان والعمل؛ التي هي إحدى لوازم الإيمان الحقيقي، وأخفق علم الكلام في تأطير الحياة بهذه الصلة أو بهذه اللازمة. "... وصار يعنى بالتأكيد على البعد النظري وينزل بعيدا عن وظيفته الحقيقية."¹⁵ وهو ما شكل عجزا لعلم الكلام أضحى به علما تجريديا قاصرا عن الالتحام بواقع المسلم. بعد أن "... تغلبت بالتدرج النزعة التجريدية الذهنية على المنحى الواقعي في التفكير الكلامي."¹⁶ وأسهم، بذلك، في الفصل بين الإيمان ومقتضياته التي يؤكد عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: "الذين آمنوا وعملوا الصالحات." التي ذكرت أكثر من عشر مرات في تسع سور في القرآن الكريم.

إن تلكم الثغرات هي التي يحاول علم الكلام اليوم أن يتجاوزها؛ وذلك عن طريق محاولات رأب الصدع بين علم الكلام والتصوف وتجاوز الخصومات المفتعلة بينه وبين العقيدة الإسلامية في سبيل إفساح المجال للروح أن تجد لها موقعا في زمن أضحت فيه العلاقة بالله تعالى تتحكم فيها "... الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب [بغرض] ترسيخ صورة رحمانية للإله، تستلهم ما يتحلى به من صفاته الجمالية، وأسمائه

¹² / عبد الجبار الرفاعي، الروح في علم الكلام، المثقف، ع 4172، تاريخ الصدور: فيفري 2018

www.almothaqaf.com

¹³ / المرجع نفسه.

¹⁴ / المرجع نفسه.

¹⁵ / أنظر: عبد الجبار الرفاعي، تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية،

دط، د، م، ن، دت.ص25.

¹⁶ / المرجع نفسه.

الحسنى، ورحمته التي وسعت كل شيء." بعد "... ما أنهك أرواحنا دين يبدو فيه الله عدوا للحب والجمال والفرح والسلام، أنهك أرواحنا دين يضعنا في معارك مزمنة مع خالقنا، أنهكت أرواحنا صورة

الإله المحارب الدموي." وهو ما يعيد الدفاء إلى علاقة المسلم بالله تعالى؛ بتحويلها من صراع مسكون بالخوف والرعب والقلق، إلى علاقة تتكلم لغة المحبة، وتبتهج بالوصال مع معشوق جميل؛ تلك العلاقة التي قضى عليها الكلام القديم وتعمل على بعثها وإحيائها الجماعات المسلحة التي تستل معظم أفكارها ومقولاتها منه. وعن طريق الدفاع عن الصلوات القوية بين التجربة الإيمانية والعمل أو بين العقيدة؛ بوصفها طاقة لإنتاج الإيمان وبين العمل والأخلاق والسلوك اليومي والحياتي للإنسان المسلم. ومن ثمة تمكين الإيمان من توجيه السلوك، وجعله معطى عمليا فاعلا مفعما بالحيوية عبر دمج النظر بالعمل وعدم الفصل

بين الإيمان كحالة وجدانية والسلوك الإنساني." تلك العلاقة التي كان الإيغال في توظيف المنطق الآرسطي أبرز أسبابها.

ب/ موضوعات خادمة للكرامة البشرية:

وعلى رأسها موضوع حقوق الإنسان؛ والتي قصد به بعض المحددين البحث في ما يعيد للإنسان حقوقه وكرامته، وقد كان حسن حنفي من أوائل من دعا إلى رد الاعتبار إلى الإنسان؛ فهو يرى أنّ علم الكلام الجديد هو التعبير عمّا تريده الحركة الإصلاحية في كلّ العالم الإسلامي، وكلّ حركات التحرّر الوطني، فإذا كان علم الكلام قديماً انبرى للدفاع عن العقيدة فعلم الكلام حالياً للدفاع عن المسلمين وقضاياهم الاجتماعية والسياسية، ومقاربة الوجود الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للإنسان؛ من منطلق أن الإسلام في حقيقته جاء لإسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة ولتحريره من الظلم والقهر الذي تلحقه به قوى الشر. وهو قد صرح بما يعني أن علم الكلام اليوم معني بتجاوز موضوعات الدفاع عن العقيدة إلى الدفاع عن الإنسان، ومن ثمة ضرورة إدخال الموضوعات التي تعني الإنسان وتوسيع مجال موضوعاته

¹⁷ / عبد الجبار الرفاعي، دعوة للخلاص من نسيان الإنسان في أدبيات الجماعات الإسلامية، جريدة الرفاعي الإلكترونية،

<http://alrefiey.net/ar/index.php/permalink/5660.html>

¹⁸ / عماد الرفاعي، في الحاجة إلى سقراط جديد، مركز آفاق للدراسات والبحوث، تاريخ: 2016/06/12.

<https://aafaqcenter.com/index.php/post/2358>

¹⁹ / عبد الجبار الرفاعي، علم الكلام الجديد: مدخل لدراسة اللاهوت الجديد وجدل العلم والدين، ضمن: موسوعة فلسفة

الدين، ط1، إعداد وتحرير: عبد الجبار الرفاعي، بغداد، مركز دراسات فلسفة الدين، 2016، ص26

لتشمل كل ميادين الحياة التي تهتم الإنسان بدرجة أولى؛ إذ يقول: "... لا أستطيع أن أدخل في علم كلام جديد دون أن أعيش العلم كخبير في العلاقات الدولية والعلوم السياسية والاجتماعية والعلوم السلوكية ومن ثم أعرف التجارب البشرية من خلال الأدب والأمثال العامية والشعر وكل ما يعبر عن التجارب"²⁰ وكثيرا ما يستدل حسن حنفي ومن هذا حذوه في الموضوع بالنصوص القرآنية كقوله تعالى: "ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين." (القصص / 05) يقول حسن حنفي: "لم تتحول حقوق الإنسان إلى ثقافة شعبية عامة ربما نظراً لتهميش تراث الإنسان في موروثنا الثقافي الديني القديم. فقد غاب مبحث الإنسان كمفهوم مستقل في تراثنا القديم."²¹

ومن ثمة كان الإنسان عند حسن حنفي هو الهدف والغاية من منجزه الذي حمل عنوان " من العقيدة إلى الثورة" والذي يعتبره محاولة لإعادة بناء أصول الدين أو تجديد لعلم الكلام وتكملة لرسالة التوحيد لمحمد عبده ويدور في معظمه حول أفكار الإنسان والتاريخ والمجتمع والحكم.²² والذي يريد أن ينتقل فيه بوضع الإنسان من الإنسان المسخر لعبادة الله تعالى والدفاع عنه إلى وضع الإنسان الثائر الرافض للظلم والمدافع عن نفسه ضد كل أشكال القهر والاعتراب انطلاقاً من لازمة الاختيار والحرية التي تميز نظرة العقيدة الإسلامية إلى الإنسان؛ فـ "... الإسلام دين تنويري يقوم على العقل ويؤكد حرية الانسان ومسؤوليته والعدالة الاجتماعية والمساواة وقدرة الإنسان على السيطرة على قوانين الطبيعة بعد اليهودية الاختيارية الاصطفائية والمسيحية القلبية المخلصية."²³

ومع أن طروحات حسن حنفي بخصوص ما يسميه اللاهوت الإسلامي، والتي يجعل الإنسان محوره ليست محل ترحيب من قبل العديد من المفكرين الإسلاميين. إلا أنها في نهاية المطاف تعبير عن موقف يتغيّر وضع الإنسان في العالم العربي والإسلامي في وقت أضحت بعض التيارات تشرعن له الإذلال والخنوع.

ج/ موضوعات خادمة للمجتمع الإنساني:

²⁰ / حسن حنفي، مجلة المنطلق، بيروت، ع 120، ص 73

²¹ / حسن حنفي، القرآن وقيمة الإنسان، <http://www.liberaldemocraticpartyofiraq.com/serendipity/index.php?>

²² / صحيفة إيلاف <http://elaph.com/Web/ElaphWriter/2008/6/336456.htm>

²³ / حسن حنفي، نحو تنوير عربي جديد: محاولة للتأسيس، مجلة عالم الفكر، المجلد 29، ع 3 يناير - مارس 2001، ص 76

موضوعات السلم والأمن والحوار: وتجسير العلاقات مع المخالفين، وموضوعات الحرية الدينية وتعدد الأديان وموضوعات الديانات المقارنة، وموضوعات التقييم الكلامي للحدثة وحوار الحدثة والإسلام ودراسة وتقييم ثقافات الحوار وحوار الثقافات والأديان وما إلى ذلك... من الموضوعات ذات العلاقة؛ والتي تصب في مجملها في البحث في وضع أفضل للإنسان في هذا العالم بعيدا عن الحروب والتجوع والخوف والإقصاء والهيمنة وسلوكات الإذلال والإهانة والاستعباد التي تمارس ضد الإنسان اليوم بغض النظر عن الخلفية العقدية أو المذهبية أو الدينية أو العرقية أو الجنسية للإنسان.

فعلم الكلام القديم انبنى في الأصل على العلاقة مع الآخر؛ سواء الذي شاركه الملة والمعتقد ويخالفه الفهم أو المذهب أو ذلك الذي يخالفه المعتقد والملة من اليهود والنصارى والثنوية والمانوية وغيرهم من الملل. وقد نسج نوعا من العلاقة مثلت، بالرغم مما رسم لها من صور نمطية سلبية، مساحة أو فضاء للجدل والمناقشة. ومن ثمة كان من الضروري أن ينتقل علم الكلام الجديد إلى البحث في نسج أو إقامة علاقة صحية مع الآخر سواء المخالف في الرأي والفهم والتفسير والمذهب أو المخالف في الدين والمذهب تقوم على الاحترام والتفهم والنقاش العلمي؛ علاقة يتعرفون فيها على بعضهم البعض بعيدا عن التكفير والتضليل والتبديع التي تجر الإنسان في العالم الإسلامي والعالم إلى حروب وصراعات دموية بمقولات مستلة في أغلبها من جراب كتب علم الكلام القديم ومدونات الفرق الإسلامية.

الاهتمام بالبيئة: من منطلق أن "... تلوث البيئة اليوم أصبح يشكل أزمة الإنسان المحورية ومعالجاته تشكل حاجته الدائمة والملحة."²⁴ ولئن كان موضوع الحفاظ على البيئة والعناية بها وحماتها يدرجه بعض المعاصرين ضمن موضوعات أصول الفقه والمقاصد؛ ليجعلوا من مقاصد الشريعة الحفاظ عليها كما يفعل عبد الستار أبو غدة عندما يتحدث عن الموضوع تحت عنوان: "سلامة البيئة وحفظها من مقررات أصول الفقه." ويقرر أن مقاصد الشرع التي حددها أساطين العلماء في خمس ضروريات وهي: الدين والنفس والعقل والمال والنسل. قال أبو غدة: "...وزاد بعضهم حفظ النسب فبلغت ستة؛ وبهذا المقصد السادس المزيد ظهر أن هذا الحصر ليس قطعيا، بل هو مبدئي، وأن الباب مفتوح لإضافة مقاصد أخرى."²⁵ فإن إدراجها ضمن موضوعات الكلام أقرب؛ ذلك أن السلم والأمان الذي تنشده العقيدة الإسلامية للإنسان

²⁴ / عبد المجيد النجار، قضايا البيئة من منظور إنساني، ط2، الدوحة، مركز البحوث والدراسات، 2004، ص12

²⁵ / عبد الستار أبو غدة، البيئة والمحافظة عليها من منظور إسلامي، مجمع الفقه الإسلامي، إمارة الشارقة، ص4

لا يتحقق فقط بين الإنسان والإنسان أو بينه وبين الله تعالى بل أيضا بينه وبين الطبيعة والكون انطلاقا من تلك النصوص القرآنية التي تجعل الأرض ذلولا للإنسان سخرها الله عز وجل له ليستفيد منها وليتمتع بخيراتها ولتكون له فضاء للتفكير وللجمال وغير ذلك. وهو ما يحتم عليه المحافظة عليها وحبها والعناية بها وأن تكون علاقته بها لا تستند إلى الصراع الذي قامت عليه علاقة الإنسان بالطبيعة في الفكر الغربي وهي العلاقة التي أفضت على القضاء على البيئة وأدت إلى كوارث بيئية بات الإنسان اليوم يبحث لها عن حلول من خلال المؤتمرات واللقاءات والدراسات التوعوية التي تهدف إلى رسم علاقة طبيعية وهادئة مع الطبيعة.

وضمن هذا المنظور ينتقد النجار طرح المعالجات البيئية في الفكر الغربي، والتي بدأت كما يقول بعد الثورة الصناعية التي أهلكت الحرث والنسل، وجلبت للإنسانية دمارا وخرابا للبيئة وعجلت بفسادها؛ لأنها لم تتوغل في البحث عن الأسباب الحقيقية، بل اكتفت بأسباب هي أقرب ما تكون نتائج.²⁶ ويرد السبب المباشر إلى خلل في التصور الأوروبي؛ خلل يطال التصور الديني والفلسفي للبيئة فيقول: "...وحينما نتأمل في الأسباب الحقيقية التي أفضت إلى الخلل البيئي الذي أحدثته الثورة الصناعية فإننا نلقي تلك الأسباب لا تتعلق بذات تلك الثورة من حيث هي نشاط إنساني من أنشطة التعمير [...] وإنما تلفي تلك الأسباب تضرب بجذور عميقة في البنية الثقافية للإنسان من حيث التصور الديني أو الفلسفي للبيئة في تلك البنية، فذلك التصور هو الذي يكيف التصرف الإنساني في البيئة ويوجه ذلك التصرف."²⁷ وهو ما يجعل أو يبرر جدوى إدخال موضوعة البيئة ضمن موضوعات الكلام الجديد التي يسعى إليها اليوم.

إن تلك الموضوعات، بالرغم مما يبدو بينها من تباعد، إلا أن اجتماعها حول الإنسان واهتمامها به يدحض ما يثار حول علم الكلام الجديد وموضوعاته؛ كونه علما تجميعيا لمسائل متفرقة وهموم مختلفة وخليطاً متناقضاً من موضوعات واهتمامات لا رابط فيما بينها، بل على العكس من ذلك إن تلك الموضوعات تمتلك من من التناسق والتناغم ما يدعم التوجه نحو تبني تلك الموضوعات في علم الكلام الجديد اليوم.

²⁶/ أنظر: النجار، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص 19.

²⁷/ المرجع نفسه، ص 11-12.

خاتمة:

نخلص بعد هذا العرض إلى جملة من النتائج نجملها في النقاط التالية:

1/ لم يكن الإنسان غاية في علم الكلام القديم، وأسباب ذلك التغييب تبدو موضوعية كونه نشأ في ظل تحديات لم يكن الإنسان واحدا منها.

2/ الإنسان في القرآن الكريم غاية ومنتهى وموضوعا.

3/ الإنسان في الفكر الغربي أركس الإنسان بعد أن أقبر الإله وأعلن تأليه الإنسان.

4/ علم الكلام الجديد يحاول الاستفادة من الحضور المكثف للإنسان في القرآن والاستفادة من سقوط الفكر الغربي بإزاء الموضوع ليرفع من شأن الإنسان ويجعله غاية في علم الكلام الجديد من خلال إدراج وبحث موضوعات الحاجة الوجودية للدين وموضوعات حقوق الإنسان وحوار الحضارات والبيئة وما شاكل وهي من صلب اهتمامات الإنسان المعاصر الباحث عن وضع أفضل.

وصلى الله على سيدنا محمد

قائمة المراجع:

الكتب:

1/ بدوي إبراهيم ، علم الكلام الجديد : نشأته وتطوره، دار المحجة البيضاء، للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.

2/ البياضي كمال الدين أحمد، إشارات المرام من عبارات الإمام، حقق نصوصه وعلق عليه وضبطه: يوسف عبد الرزاق، ط1، زمزم ببلشير، كراتشي، باكستان، 2004.

2/ تسيهر جولد ، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، دط، بيروت، دار الرائد العربي.

3/ حنفي حسن ، نحو تنوير عربي جديد: محاولة للتأسيس، مجلة عالم الفكر، المجلد 29، ع 3 يناير
- مارس 2001.

4/ ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، مراجعة: سهيل
زكار، دط، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

5/ الرفاعي عبد الجبار ، تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، الكلامي والفلسفي في
الحوزة العلمية، دط، د، م، ن، دت.

الروح في علم الكلام، المثقف، ع 4172، تاريخ الصدور: فيفري 2018

علم الكلام الجديد: مدخل لدراسة اللاهوت الجديد وجدل العلم والدين، ضمن:
موسوعة فلسفة الدين، ط1، إعداد وتحرير: عبد الجبار الرفاعي، بغداد، مركز دراسات فلسفة الدين،
2016.

6/ الرفاعي عماد ، في الحاجة إلى سقراط جديد، مركز آفاق للدراسات والبحوث، تاريخ:
2016/06/12.

7/ أبو غدة عبد الستار، البيئة والمحافظه عليها من منظور إسلامي، مجمع الفقه الإسلامي، إمارة
الشارقة. الغزالي 8/ أبو حامد، المنقذ من الضلال، وضع حواشيه وخرج أحاديثه وقدم له: أحمد شمس
الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1988.

9/ الفارابي أبو نصر محمد ، إحصاء العلوم، تحقيق: عثمان محمد علي، مكتبة الخانجي، القاهرة،
1931.

10/ القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، ط2، القاهرة، مكتبة
وهبة، 1988.

11/ القرضاوي يوسف ، الخصائص العامة للإسلام، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1983

12/ النجار عبد المجيد، قضايا البيئة من منظور إنساني، ط2، الدوحة، مركز البحوث والدراسات،
2004.

المواقع الإلكترونية:

<https://aafaqcenter.com/index.php/post/2358>

<http://alrefiey.net/ar/index.php/permalink/5660.html>

<http://www.liberaldemocraticpartyofiraq.com/serendipity/index.php?>

<http://elaph.com/Web/ElaphWriter/2008/6/336456.htm>

www.almothaqaf.com

<http://www.kalema.net/v1/?rpt=942&art>

"وحاصل الأمر أن المشروع الإصلاحي المرتقب لن يتحقق بالرجوع إلى الإشكالات الكلامية القديمة." (ولد اباه، تجديد علم الكلام من منظور فلسفات التأويل والعلوم الإنسانية المعاصرة)